

ديا جوان - دمشق

من رحم المعاناة يولد الأمل... ومن قلب الألم يولد البشر ومن القلب والروح يهطل العواطف... حين نستذكر مسيرة ومواقف قائد عظيم سكن القلوب والضمائر

- اعترف ان التحدث عن البارزاني الخالد يعني المغامرة- ورغم ذلك اراني اليوم اضع نفسي امام اصعب امتحان من جديدي... ولاشك ان عالم هذه الشخصية العظيمة سيبقى مصدراً للبحث والتنقيب وموضوعاً لتفسير المفكرين والباحثين زمناً طويلاً رغم وضوحها كالشمس...

لما حمل هذه الشخصية في ثناياها من الخصال والصفات النادرية الوجود... في الحقيقة حينما نقرب من معالم هذه الشخصية عن كذب نجد اشبه بعجزة من اعجازات القرن العشرين ومن اهم دلائل الاعجاز يكاد يكون شخصية فريدة في هذا العالم حازت على اعجاب واحترام اصدقائه

وخصوصه معاً. ومن بعض صفاته... كان موسوعياً بانسانيته ومنهلاً ومصوراً للفكر وكاشفاً عن كل سر غامض ولاسيما اذا كان الامر يتعلق بقضية شعبه - كان ينبوعاً ثراً من ينابيع المعرفة... ما كان في العالم الا عالماً

رغم صعوبة الظروف في الزمان والمكان الى جانب ذلك كان ضليعاً في الوعي العميق بالاصالة الاصيله وكان عظيم قوم لا يرى نفسه متعظماً.. بلغ به التواضع انه كان يرفض ان يصفق له في اي مناسبة كانت او ان يحاط بهالة من القدسية وخلع الاوصاف والالقب الاسطورية عليه...

كان يردد دائماً انا خادم الكورد وابن الكورد ويسي مصطفى فقط.

لقد عرف (البارزاني الخالد) بزهد في الحياة بل اصبح مثلاً للزهد... كان يسقي العطاش وهو ظمآن ويطعم من هج العيون مثابراً... ويرتدي ثياباً لامتناز بشيء عن ثياب البيشمه ركه وكان

يصر ان يأكل مع رجاله ومن نفسه طعامهم وعلى حد قول شميدت ان الطعام الذي كان يقدم في مقره قد لا يختلف من طعام أي قرية كوردية فقيرة.

حينما كان يسأل (البارزاني الخالد) لماذا تصر دائماً على ارتداء ملابس قديمة مع انك تستطيع لبس افخم الالبسة.. كان يجيب دائماً.. لقد صهرنا الإيمان واحداث الزمان فحولانا الى روح واحدة انني لا احس بالحاجة الى تغيير ملابسي والبس اللباس الفاخر الا بعد ان ينجح جميع الكورد والمساكين المضطهدين في تغيير ملابسهم بافضل منها وسأكون آخر من يرتدي لباساً جديداً.. وعرف بجلاء عزوفه عن جمع الاموال ومن اقواله: ان الركض وراء جمع الثروة يمتص كل ما في الساعين اليها من الصفات الحميدة والطيبة- وكان يردد هذا البيت احياناً.

وكان مؤمناً بما يقوله دائماً... ومن اقواله أيضاً:

التاريخ لم يتحدث في اي مرحلة وزمان عن الذين ملكوا الثروات والقصور بل يتحدث التاريخ باحترام عن الذين دافعوا وناضلوا وذاقوا المرارة والعذاب واستشهدوا من اجل اوطانهم وحقوق شعوبهم المشروعة.

كان الوفاء من احد خصاله... ودائم الذكر لمن سبقوه في حمل راية النضال... وجسد هذا قولاً وعملاً... حمل راية الدعوة المناهضة وطموح شعبه مع الحقيقة عاش في اعماق الصوفي والمناضل... لقد رافقه القرآن والبنديقية معاً.

ورغم كل هذا كان صلب الشكيمة ولكنه لم يستخدم القوة الا في سبيل توطيد الحق والعدالة... ومن جانب آخر كانت امكانيات (البارزاني الخالد) الثقافية ترتقي الى مستوى قدراته العسكرية الفذة التي اعترف بها الاعداء قبل الاصدقاء.

كان من جوده الاصفاء دون تأفف ويميز العلماء بالاصفاء وجوابهم بالرمز

والايماء والجدير بالذكر كان يجيد اللغة الفارسية والروسية والعربية.. الى جانب لغته الام... لقد عرف عنه انه كان رقيقاً ومعيناً ومحباً للشعر والشعراء وكان يلقي قصائد حافظ والفردوسي... ويردد باستمرار ابيات من دواوين: احمد خاني والملا الجزيري.

وتتجلى عظمة (البارزاني الخالد) بعد رؤيته في امور عدة... منها نظرتة للمرأة واهمية دورها في الحياة والنضال... ومن الجدير ذكره كان اول قائد للحركة التحررية الكوردية والثورات الكوردية... يؤمن ايماناً راسخاً بان المرأة الكوردية تستطيع ان تؤدي دوراً فعالاً في خدمة القضية الكوردية والدفاع عنها وتطورها.

وان المجتمع الكوردي وعبر التاريخ عرف باحترامه للمرأة وتبوات بعضهن مراكز وادواراً اجتماعية وسياسية كبيرة... اصبح فخراً للاجيال الحالية. وقد اشار (البارزاني الخالد) في خطابه التاريخي في عام ١٩٤٨ الى الدور البارز للمرأة الكوردية واستعدادها الدائم في التضحية والفداء من اجل الكورد وكوردستان.. وابعاز منه تأسس ١٩٥٢ (اتحاد نساء كوردستان) وكان (البارزاني الخالد) يريد ان تكون المرأة في مصاف الرجال سواء في المجال السياسي او المجالات الاخرى.

ولهذا وفي ظل (البارزاني الخالد) وثورته المباركة احسست المرأة الكوردية بشخصيتها وبتحقيق كثير من حقوقها وتبوات المرأة مراكز عالية.

ورغم ان شخصية (البارزاني الخالد) الانسانية والسياسية صنوان لا ينفصلان ولكن بما لاشك فيه ان النجاح السياسي لأي قضية مرهون بعلاقة زعيم ذلك الشعب مع عصره- وقد اتقن (البارزاني الخالد) علم الحساب والحكمة السياسية بدقة.

كان يصرح دائماً اننا حملنا السلاح لندفع به الخطر عن انفسنا ولم نسع ابدأ للحرب انما سعينا دائماً للسلام وعلى الرغم من كل اساليب القمع

شخصية البارزاني الخالد الانسانية والسياسية

والوحشية التي ترتكب بحقنا.. وان هدفي الاخذ بيد شعبي الى عيشة مستقرة آمنة ومن اجل حياة افضل. ولأن حب (البارزاني الخالد) لشعبه ومنع تعرضه للمزيد من الآلام والويلات.. كان من اهم اسباب استجابته طوال حياته الى قبوله لآية بادرة من اجل السلام والمصالحة الوطنية.

كان على الدوام ضد القتال وسفك الدماء وميالاً الى التسامح والسلام. وقد شهد له بهذه الصفة- سكرتير مجلس السلم العالمي- (روميش جاندر) عندما صرح قائلاً:

اتمنى ان التقى بالبارزاني وأصافحه لانه نصير للسلم في العالم. وكما قال عنه الزعيم كمال الجنبلاط: البارزاني قائد تاريخي لشعب تواق للحرية.. مهذب جداً ومتواضع وله شخصية قوية جداً عنده صفات قادة الجيوش العصريين وجميع من حوله يكتنون له الاحترام. واما كيف اوصل (البارزاني الخالد) قضية الكورد العادلة الى العالم باسره عبر سنوات نضاله: فممنذ انطلاق الشرارة الاولى للثورة الكوردية اظهر الزعيم (البارزاني الخالد) للعالم العربي انه لا يقاثل في سبيل القتل... بل يجاهد في سبيل حرية شعب كاد الظلم ان يقضي عليه...

وكان يؤكد في كل خطوة وقبل اطلاق اية رصاصة من فوهة بنديقية البيشمه ركه اننا لانظلم ولانريد ان نظلم. وكان يقول: ما حاربت وسوف لن احارب ضد الشعب العراقي.. ذلك الشعب الذي انا منه والجدير بالذكر لم يسمح في تاريخ ثورته ان يقتل او يؤذي مدنياً عراقياً واحداً او يلحق الضرر بمصالحه وامنه ايماناً منه ان الشعب بريء من كل ما يقوم به النظام بحق الكورد. وكان يؤكد دائماً على ان الكوردي يكمل العربي وان العرب معنيون بقضيتنا اكثر من غيرهم ويعتبر ان كل محنة تأتي على الشعب العربي هي محنته.

وفي سبيل المثال لا للحصر.. اثناء العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦ وفي خضم هذه الاوضاع- بينما كانت بعض الحكومات العربية تقف موقف المتفرج... نجد ان (البارزاني الخالد) وشعبه وقفوا موقفاً مشرفاً من هذا الاعتداء السافر على شعب مصر.. ولم ينسى الكورد ما تربطهم بالقومية العربية والشعوب العربية عامة والشعب المصري خاصة بالعلاقات الحميمة. خرجت الجماهير الكوردية الى الشوارع تندم بهذا العدوان وتعلن عن تضامنها التام للشعب المصري.

والشيء الذي يبعث على الفخر هو اعلان الزعيم الكوردي (البارزاني الخالد) عن استعداداه ورفاقه للتطوع والتوجه الى مصر والدفاع عنها... ويدل ذلك على حرص (البارزاني الخالد) على تمتين الروابط بين الكورد والعرب وتعزيزها مقتدياً في ذلك اثار سلفه صلاح الدين الايوبي والزعيم جمال عبدالناصر بدوره قدر هذا الموقف مدركاً ابعاد هذه البادرة في التاريخ النضالي المشترك بين الكورد والعرب -وقال الرئيس جمال عبدالناصر عن (البارزاني الخالد):

"البارزاني زعيم اجتمع فيه القديم والحديث لقد افنى نفسه في سبيل حرية شعبه" لقد اوصل (البارزاني الخالد) قضية شعبه الى الشعب العربي بكل صراحة ووضوح... في الحقيقة اذ اعابنا جيداً نهج (البارزاني الخالد) لوجدناه اصالح دستور في شريعة الاخاء بين الكورد والعرب.

واما على الصعيد العالمي واوروپا على وجه الخصوص:

خزائن اوروپا كبيرة ومليئة بقضايا الشعوب.. ربما كانت قضية الكورد واحدة من اكبر هذه القضايا لديها وهي تفهم القضية بكل ابعادها اكثر من غيرها ولاشك (للبارزاني الخالد) وحرركته دور اساسي وكبير وفعال في ذلك.

لقد حس العالم باسره واوروپا على وجه الخصوص على لفت الانظار مراراً للقضية الكوردية بل نستطيع القول انه اول من وضع اللبنات الاولى في لفت انتباه اوروپا وهيئة الامم المتحدة التدخل في القضية الكوردية.

وفي سبيل المثال لا للحصر.. في عام ١٩٤٨ في كونفرانس باكو.. وفي ختام كلمته التاريخية... دعا قائد الامة الكوردية (البارزاني الخالد) المشاركين لتقديم ملاحظاتهم للوصول الى النتيجة المنشودة من الكونفرانس وفقاً لمصلحة الشعب الكوردي...

ثم جدد العهد على التمسك بمبادئه الديمقراطية لقضية شعبه وقال:

اننا سرف لن نرتاح حتى نستعيد حقوقنا السليبية ويتم خلاصنا من الظلم.. بهذه الرؤية العصرية وقبل نحو اكثر من نصف قرن... عزز (البارزاني الخالد) طموحات شعبه ورفاقه المناضلين لمواصلة النضال من اجل مستقبل افضل.. في الحقيقة كلما حاولنا الاقتراب من معالم هذه الملحمة التي يسمونها (البارزاني) لوجدناه.. قادماً من التاريخ وهو بحق ابن التاريخ واعاد صياغة تاريخ الكورد من جديد بفلسفة الغرب وحكمة الشرق.

واليوم اصبح جلياً لكل مبصر ان النهج الذي اورثنا اياه هو الجح مفتاح لفتح الابواب الموصدة في وجه الكورد.

ومن هنا نستطيع القول اذا كان من طبيعة البشر ان يقتدوا بمن هو الاقوى والاصدق والاخلص والاشمل... فكان لايد للكورد ان يقتدوا بشخصية البارزاني الخالد ونهجه.. والجدير بالذكر ايضاً ان الشعب يعرف جيداً كيف يجسد فكر واخلاص عظمائه وفي هذا المنحى نجد ان الشعب الكوردي جعل من هذا النهج بمثابة (قبله نامه) اي البوصلة في مسيرة حركته الانسانية والتحررية.. دون تردد ولا وجل.

وفي الحقيقة وباقتضاب كل ما نستطيع القول عن عظمتة هذه الشخصية الانسانية والسياسية معاً باناه ألبس الكورد تاج النضال الحقيقي بكل ابعادها.. ملاً خزائنتهم بالتراث والقيم بدلاً من الذهب والجواهر.

وفي الحقيقة ان كل ما يجنيه شعبنا في كوردستان اليوم هو ثمرة ناضجة من تلك الشجرة المباركة التي زرعتها "البارزاني الخالد" والشعب الكوردستاني الابي في تلك الارض الطيبة العطاة المباركة.